

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة المدينة

الملتقى الوطني الثالث

كلية الحقوق

حول

مبدأ السيادة في ظل النظام الدولي الجديد

12-13 مايو 2010 م

مداخلة بعنوان

استنهاض النظام المعرفي المتكامل للوقاية من سيادة سلبيات العولمة

بقلم

د/ محمد بن السايح

أستاذ محاضر بكلية العلوم القانونية والإدارية بجامعة حسيبة بن بوعلي - بالشلف

استنهاض النظام العرفي المتكامل للوقاية من سيادة سلبيات العولمة

مدخل

حظيت عقود السنوات الأخيرة بجهود تشريعية وعلمية لتحقيق النظام العرفي المتكامل الذي يقدر الجهود البشرية المتكاملة ، ويهتم بما جاء به الوحي ليشمل كل المجالات الإنسانية والاجتماعية والطبيعية وغيرها.. فالمجالات الفكرية المختلفة تتكامل لتشكل نسقا معرفيا شاملا كما تتكامل مجالات كل علم في داخله لتبني هياكل متناسقة يعضد بعضها عضا وفق خطة علمية محكمة لتؤسس لقوة تفتتح على العالم ولكن من دون ذوبان كما تهتم بخصوصيتها ولكن من دون انغلاق.

وهذا التوجه العرفي يفرض علينا مجموعة من الشروط حتى لا نفتح على قوانين الطبيعة وحدها ونضع كل أولوياتنا ضمن هذا النسق العالمي المعاش في ظل ما أصبح يُعرف بالنظام العالمي الجديد (العولمة) كما هو واقعنا الآن ، بل لا بد من التماثل لاستقبال كل ما هو جديد وفق معايير تضبط تقدمنا بموازن التكامل بين الجانب المادي والمعنوي في حضارتنا وثقافتنا لتتم السعادة في الحياة بانسجام تام بين الإنسان والكون والحياة..

ولكي نصل إلى ذلك ..وبعد أن لفت نظري اعلان كلية الحقوق بجامعة المدينة الكريمة في هذا الملتقى الوطني الثالث والذي عنوانه (مبدأ السيادة في ظل النظام الدولي الجديد) ، فقد رغبت بالمساهمة تحت محور (أثر العولمة على السيادة الثقافية للدول) بأن اخترت عنوان (استنهاض النظام العرفي المتكامل للوقاية من سيادة سلبيات العولمة) ، وطرحته لذلك إشكالية ونحن في عصر العلم والعولمة وهي :كيف نحقق نظاما معرفيا متكاملًا وفق نسق فكري هادف يحمي السيادة الثقافية وبالتالي الوطنية من سلبيات العولمة .. ولمعالجة هذه الإشكالية أقترح عليكم الخطة التالية:

خطة البحث

قسمت البحث إلى ثلاثة مباحث وخاتمة

03.....	المبحث الأول: تحديد المصطلحات وبيان التحديات:
03.....	العولمة.....
03.....	استنهاض.....
03.....	النظام المعرفي.....
03.....	التكامل المعرفي.....
03.....	تحديات العولمة وأنواعها.....
08.....	المبحث الثاني: استنهاض النظام المعرفي المتكامل.....
08.....	النهضة العلمية
09.....	النهضة التشريعية.....
11.....	النهضة القيمية.....
13.....	المبحث الثالث: أدوات الاستنهاض.....
14.....	الخاتمة وتوصيات.....

استنهاض النظام العرفي المتكامل للوقاية من سيادة سلبيات العولمة

المبحث الأول: تحديد المصطلحات وبيان التحديات

العولمة: هي صياغة العالم (فكريا، واقتصاديا، واجتماعيا، ولغويا...) في قالب واحد، يقوده فكر الغالب والمهيمن ماديا..¹

وهذا التعريف هو صياغة عامة نتجت عن ملاحظة تقدم العالم الغربي وأمريكا، ومحاولة السيطرة وفرض المناهج والسياسات العالمية لتوجيه الدول والشعوب وجهة يرونها صحيحة وصائبة، ولهذه العولمة في هذه الجوانب مخاطر سوف نحددها لاحقا إن شاء الله تعالى.

استنهاض: المراد بكلمة استنهاض هو استدعاء القواعد والأسس الهامة لإحداث القوة للقيام.. واستنهاض لكذا أمره بالنهوض له²، وهذا يدل على شيء كان قائما ثم قعد لأي سبب من الأسباب، وهي مشتقة من الفعل نهض.

النظام المعرفي: هو المنهج السليم لاستخراج معارف متكاملة وضبط مسارها وفق نسق يضبط طريقة التفكير لقضية المعرفة في شتى مجالات العلوم³.

التكامل المعرفي: يقصد به تلك العملية والصورة المعرفة المتحققة بتفعيل كل ما أنتجه العقل البشري وما آمن به في كل مجالات المعرفة⁴.

تحديات العولمة وأنواعها

ننتقل من هذا المحور إلى واقعنا بمسح ضوئي عام، فنؤكد الهيمنة الغربية والأمريكية علميا واقتصاديا وعسكريا وإعلاميا وغير ذلك مما يمتلكه الغرب من القدرة المادية والصناعية الهائلة والتي أفادت العالم وجعلته كأنه وطن واحد ونظام واحد.

أنواع التحديات

وتحديات العولمة كثيرة ومتنوعة وشاملة لجميع شؤون الناس والحياة، فهي كالسيل الهائج الذي يلتهم كل ما يجده أمامه دون تمييز، وسبب انحدار هذا السيل هو وجود طريق مُمهد وعدم وجود موجهات تصرفه إلى جهة بعيدة عنا، لذا نجدها -أي العولمة- أثرت في الجانب السياسي والاقتصادي والثقافي والفكري والاجتماعي والقانون واللغوي والتاريخي... وسأحاول تسليط الضوء على هذه التحديات المختلفة.

¹ -فكرة العولمة لحسين بن الحسن ص04 دار الكتاب العربي الجزائر

² -انظر القاموس المحيط من موقع الباحث العربي

³ برنامج التكامل المعرفي للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة واتحاد جامعات العالم الإسلامي ص01 الحلقة الدراسية بالخطوطم2009م

⁴ - المرجع السابق ص02.

1- تحدي فكري وثقافي:

في هذا المجال أشير إلى أن كل لحظة في حياتنا وكل يوم من أيامنا تُكتشف وتُخترع أشياء جديدة تُنتج معارف هائلة تُؤثر في أفكارنا وفي سلوكنا ومناهجنا. وأصبح من المقدر بمكان نقل الثقافات المتعددة والمتنوعة وأصبح تأثيرها ظاهراً لا على الفرد وحده بل تعداه إلى الخلية الأساسية في المجتمع وهي الأسرة وكذلك على الدولة بمؤسساتها وبرامجها، ونلاحظ أن أكثر من 80% من هذه الثقافات والأفكار والاختراعات هي أوروبية وأمريكية وقد ساهمت وسائل الإعلام الأوروبية في نقلها ونشرها.

كما نجد أن ثورة الاتصالات وترويج ثقافة الاستهلاك في هذا العصر قد جعلت الدول والمؤسسات في مجتمعاتنا المدنية تتبهر بها وتحذو حذوها وتجعلها القدرة المطلقة والمثل الأعلى لديها، وإذا برز أحد أبنائنا في هذه العلوم الكونية هيئت له أسباب البحث والعيش الكريم خارج وطنه في دول الغرب أفضل مما يهيأ له في بلادنا مما جعل ظاهرة (هجرة الأدمغة) تنمو وقد أشار إلى هذا بعض رؤساء الدول الإسلامية والعربية⁵.

2- تحدي اجتماعي: ويتمثل ذلك في شعور الفرد بالتبعية المادية لغير المسلم في ملبسه ومركبه ومقتنياته وسلعته، كما أثر ذلك على الأسرة وهدم أركانها من محاولة تقليص دور الأبوة التي قال الله فيها: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) 32الإسراء. وتحاول أن تقلص من دور الأب والأم نحو الأبناء والبنات ..

كما نجد هذه العولمة تحاول رعاية الأخلاق..و التشريع لها بعيداً عن قيمنا وعاداتنا وتبرز أن أساس العلاقة بين الناس تنظمها مجموعة المصالح المشتركة، وهي المصالح الدنيوية فقط، وتجعلها هي الأساس لبناء العلاقة بين الأسرة والأبناء أو بين أفراد المجتمع والدول، وتحاول أن تلغي كفاية الأب في توجيهاته.

وهذا عمل كاف للقضاء على الترابط الأسري القائم عندنا على مبدأ الطاعة والبر كما أنه كاف لتفكيك المجتمع، وجعل الطفل يمكنه أن يتحرر ..وبالتالي قد يُستغل وأنتم تعرفون ما ينتج عن استغلال الأطفال والقصر في مجتمع غابت عنه القيم والمبادئ، في حين أن ديننا الإسلامي الحنيف يجعل الاهتمام بالطفل أولى الاهتمامات باختيار أمه وإسمه والعقيقة له وحضانتها وتربيته وتوجيهه ومصاحبته وتزويجه وصيانته...

كما أن العولمة الحديثة⁶ تركز في جانبها الاجتماعي على إذكاء نار العصبية والطائفية بين أبناء المجتمع الواحد والبلد الواحد. فنقسم نظم العالم الإسلامي إلى معتدلين ومتطرفين وإرهابيين، وإلى مسلمين وغير مسلمين وإلى مسلمين ونصارى وإلى عرب وعجم وإلى أغنياء وفقراء وإلى سنيين وشيعة وإلى عرب وأكراد أو قبائل أو

⁵-هجرة الكفاءات العربية دوافعها واتجاهاتها عبد القادر رزيق المخادمي ص22 وزارة الاتصال والثقافة دار هومة الجزائر 2000م-
⁶بين حضارة القوة وقوة الحضارة د/يوعلجة غياث ص65 دار الغرب ط1 2004م

أمازيغ وإلى ناطيق بلهجات محلية مختلفة داخل الإقليم الواحد، وهذا يدعو إلى تأسيس العصبية والطائفية داخل المجتمع الواحد وهو تناقض صارخ في عصر العولمة.

3- تحدي اقتصادي سياسي:

نجد العولمة الآن تقود العالم بقوة أحادية، وهذا بين التأثير في سلوك الدول وأخلاقها من خلال القرارات السياسية التي يحاولون من خلالها ضبط دول العالم الصغيرة أو الدول النامية أو الدول الإسلامية بما فيها الدول العربية وهي تصدر لنا قوانين الحقوق (حقوق الإنسان والأفراد) ورسم سياسة تجعل الفرد حرا في جُل ما يرغب ويهوى وبالتالي يصبح منحرفا، وهذا الانحراف يعد سلوكا طبيعيا عندها.

كما تحاول فرض سياسة تعليمية تجتث الخصوصية الثقافية والحضارية لتجعل مسألة الانتماء للهوية الوطنية والإسلامية ضعيفا، بل ميّنا مقابل الانتماء الدولي العالمي الجديد⁷..

كما أنها في المجال السياسي تؤكد على السياسة الثقافية التي تتجاوز مبادئ الإنسان وتاريخه لتروج لنظام جديد يسهل فكرة التطبيع على جميع المستويات، أنها في المجال الاقتصادي تشجع وتقنن بترويج فكرة الربا في جميع القروض والمعاملات البنكية، وتشجع المؤسسات المالية ورجال الأعمال على ذلك فضلا عن الترويج للسلع المحرمة في شريعتنا بدعوى تنمية الاقتصاد والسياحة وغير ذلك.

هذا فضلا عما تحمله السلع المستوردة من أخلاق معها إلى العالم الإسلامي والعربي ، ومن سلوك تؤثر فيه على أعرافنا وقيمنا، ونلاحظ ذلك من خلال تأثير الدعاية الاقتصادية لأي منتج غربي أو أوروبي في شاشاتنا الوطنية أو الشاشات الدولية، وكيف يُستغل جسد المستحسنتات في ذلك وتأثيره على أبنائنا، بل نجد شعارات وعلامات تجارية معلقة على الثياب أو في حقائب أبنائنا، أو على بعض الأماكن الحساسة.. في الجسد تكاد تنسى شبابنا في معرفة ألوان العلم الوطني!!.. هذا فضلا عما تحدثه من تأثير أخلاقي ونفسي داخل الشباب والشابات.

كما نلاحظ في عصر العولمة سياسة اقتصادية تشجع من خلال مؤسساتها المالية إبرام عقود ومعاهدات مع دول دون أخرى بسبب بعدها أو قربها من السوق الأوروبية المشتركة أو مما كان يسمى (الجات) أو مما أصبح يعرف بـ (منظمة التجارة العالمية) التي أصبحت دول العالم الإسلامي تتسابق في استرضائها لتقبل عضوا في مؤسستها وقد ساهم هذا في وجود الطبقة داخل المجتمع الواحد وبين الدول العربية والإسلامية وعمق التفاوت الاجتماعي مع غياب مفعول دور الزكاة وتأثيرها.. وأصل لمبدأ الكراهية داخل أبناء المجتمع بل وبين

⁷-الهوية الوطنية والمجتمع العالمي والإسلام ص101 د/ طراح ومنير سنو دار النهضة بيروت 2002م

الدول العربية والإسلامية، مما ساهم في طمس معالم الهوية الاقتصادية الإسلامية وما يترتب عليها من قيم ومبادئ وثوابت وساهمت في إنشاء حروب بين دول شقيقة وفي داخل مجتمعاتها كما هو واقع الآن. وساهم في جعل الثروة عند فئة دون أخرى، وجعل الدول النامية تركز على الاستهلاك الواسع في كثير من المجالات وغزا المنتج المحلي والوطني. هذا فضلا عن سيطرة الشركات الكبرى المتعددة الجنسيات على التجارة العالمية والاستثمار.

4- تحدي تاريخي وحضاري:

ونعني بذلك استنابات بعض الأحداث التاريخية في عقول الأجيال والنظم المعاصرة لتصديق الروايات التاريخية المفتعلة قصد سيطرة هوية وعقيدة الغالب على المغلوب، وأسطورة المحرقة أو الهولوكوست المنسوبة إلى النازية ليست ببعيدة عنا، وذلك لاستجلاب قلوب العالم وثروته حتى يتعاطف مع اليهود المحتلين لفلسطين، ويعطيهم الشرعية الدولية للاحتلال والاعتداء ونحن الآن نسمع بمبدأ (شرعية الدفاع عن النفس) .

وهذه العبارة تبين لنا تحدي لغوي صارخ- وهو ما نعنيه أيضا تحت هذا العنوان-، فجعلوا من خلالها القبيح حسنا والمنكر معروفا، وقد حدثنا القرآن الكريم عن فئة من الناس تجعل المعروف منكرا والمنكر معروفا وتأمّر به قال تعالى: (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف)67التوبة . كما استعملوا ألفاظا لطفوا بها الكبائر حتى لا تبقى كذلك كالجنس الذي سموه بالحرية وهم يسعون إلى زرعها في مدارسنا وجامعاتنا-أي ثقافة الجنس-وكيف يصبح الطالب معتدلا عندما يتعامل جنسيا مع مثله أو مع حبيبته مثلا.

ومن التلاعب اللغوي جعل القدس الشرقية في فلسطين منطقة متنازع عليها مثلا وجعل المقاومة الفلسطينية إرهابا، وتسمية المجازر الإسرائيلية دفاعا عن النفس، وتسمية المدافع عن حقه إرهابيا وهكذا وجعل القضية الفلسطينية للفلسطينيين وحدهم بقولهم (منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني)...

كما أن عالمية اللغة الإنجليزية واللغات الأخرى جعلتنا نخجل في بلادنا العربية من أن نتكلم بلغتنا، وأصبح من يتقن اللغة الأجنبية أو لغة المستعمر مفضلا في بعض المؤسسات عن يتقن اللغة الوطنية وهذا تحدي قوي واقع، هذا فضلا عن تسمية بعض الحروب بالحروب الصليبية وذلك بنشر الدين النصراني المسيحي وتحويل العالم إلى اتباع لهذه الديانة، وأشير هنا إلى الفاتيكان و إلى اليهود الذين أصبحوا طرفا مدعما سياسيا وثقافيا وفكريا واقتصاديا واضحا في دنيا العولمة اليوم أكثر من أي وقت فات، ولا نعلم بما هو آت مما يؤسس لثقافة اختراق الخارج للداخل.

5- تحديّ تشريعي وقانوني:

برز في المجتمع الدولي بعد الحرب العالمية الثانية ما يسمّى بالقانون الدولي وذلك خلال العقود القليلة الماضية، وكان الهدف منه هو: تشريع مجموعة من القواعد القانونية تحسن العلاقة بين أفراد دول العالم ووُجِدَت المؤسسات والمنظمات الدولية والحقوقية وغير ذلك، وبات يعرف ما يسمى بهيئة الأمم المتحدة وفروعها المنتشرة في العالم اليوم.

وما يميز هذه القوانين الدولية هي أنها أهدرت جوهر الإنسان أمام حقوق الإنسان أو أمام إنسان الحقوق⁸ وأنها ضخمت للبعد الفردي في حقوق الإنسان على حساب البعد الجماعي. وقامت على الفلسفة الرأسمالية لأنها ركزت على الحقوق وأهملت الأصل فأهملت الجانب المعنوي في الإنسان الذي يتكون من الروح والجسد، لذا نجدها همّشت دور الدين والعقل والضمير والكرامة والشرف والسمعة بل وأهدرتها باسم حقوق الإنسان فشرعت للشذوذ الجنسي، والزواج المثلي وحق الإجهاض وتغيير الجنس وتعليم الطفل ثقافة الجنس وامتهان وابتذال المرأة (سلعة) كما أهملت تزكية النفس التي قال الله نبارك وتعالى عنها: (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)10 الشمس وقال تعالى أيضا: (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة)02 الجمعة. (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)09 الشمس.

وقديما كان الظلم بمقتضى الغلبة والبطش أما اليوم فيتم باسم العدالة والقانون في العالم⁹، وانظر ستجد خمس دول دائمة في الأمم المتحدة تتحكم في العالم، ومن هنا ننادي ونقول: بأن ضرورة الخلق كضرورة الخلق، والحركة الحقوقية والتشريعية بلا أخلاق حركة ظاهرية مهتمة بالوسائل وليس بالمقاصد وهي بهذا عرضة للتكليف والتوجيه والتحريف كما هي معرضة للتعطيل أيضا وعرضه للتكليف والتعطيل¹⁰ أيضا.

وكلنا يعرف مجال التشريع في ميدان الأسرة في حرية الانصراف عن الزواج الشرعي واقتسام التركة بالتساوي وإضعاف قوامة الرجل، وقيام العلاقة الزوجية على مسألة التعاقدية خالية من الود والرحمة، ومنع الطلاق والتعدد والولاية على القاصرة وغيرها.

فنحن أمام تشريعات عالمية زاحفة تحاول التهام الخصوصية الشرعية للأمة وهذا تحد جدير بالدراسة والاهتمام والنقد..

3- الإرهاب الدولي وفقا لقواعد القانون الدولي للمي نبيل أحمد درا النهضة العربية، القاهرة.

9- لإرهاب الدولي وفقا لقواعد القانون الدولي لمحمي نبيل أحمد ص18 دار النهضة القاهرة.

10- المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، لمحمد إبراهيم الديك، مطابع البيان التجارية، دبي

و مع ذلك فإنني أشيد بالقانون الدولي في كثير من تشريعاته ..إلا أن ضعف الضمير واتساع نطاق الحرية قد جعل مستوى تطبيقه وتأثيره ومصادقته ضعيفة جدا في الواقع الدولي المُعاش، و كما هو ملاحظ داخل الأسرة الدولية الراهنة، نلاحظ خمس دُول دائمة العضوية تسيطر على العالم وتلت دول العالم ليس لها دولة دائمة العضوية، وعليه فبدون أخلاق فإن الحركة الحقوقية تبقى ظاهرة مهتمة بالوسائل لا بالمقاصد.

المبحث الثاني: استنهاض النظام المعرفي المتكامل

1- النهضة العلمية: ونعني به كل ما توصل إليه العقل والمعرفة من علوم وفنون وآداب وما تلا ذلك من صناعة واختراع واكتشاف جعل الإنسان يقفز قفزة نوعية في مجال العلوم الطبيعية والفيزيائية والنووية والذرية وغيرها¹¹.

وهنا لا بد من الإشادة بالجهود الغربية والأمريكية في هذا المجال، وقد قدمت للإنسان كل وسائل التقدم والازدهار والرفاهية، ويجب على العقل كل العقل بحكم قانون التسخير والاستخلاف أن يستفيد من هذه الجهود والتجارب كما استفادوا هم سابقا من علوم المسلمين ومنهجياتهم في البحث والدراسة والعلم، وهذه العلوم العصرية يمكن ان نسميها (العلوم التي لا وطن لها) ويمكن أخذها من أي مصدر كان دون التقيد بدين أو لغة أو جنس، إلا أن ترجمتها إلى لغتنا وتسخيرها بها يكون أقوى وأجدى وأنفع من استخدامها بلغة مخترعيها، وقد نحى اليابانيون هذا المنحى في ترجمة العلوم وقوانينها إلى لغتهم فكان لهم هذا التقدم العلمي والتكنولوجي . وإذا كان هناك من حصر للعلوم فيمكن الإشارة إلى ثلاثة أنواع من العلوم العقلية يمكن الإشادة بها وهي:

أ- **علم الهندسة الوراثية:** وما توصلت إليه لمعرفة هذا الإنسان وما يحويه من صفة وما أمده الله به من سنن وقوانين تنطق بعظمة الخالق سبحانه وتعالى، وما أمد الله به كل المخلوقات الأخرى. وقد غزت الهندسة الوراثية والتقنية الحيوية كل مجالات البحث العلمي، وتعد الهندسة الوراثية علماً له أصوله وقواعده وأهدافه، وهو يبحث في قضايا دقيقة وحساسة لتعرف المزيد من الأسرار التي يتضمنها هذا الكون وما فيه ومن فيه، وكل يوم يخرج علينا هذا العلم بما هو جديد ومثير، مما يؤكد عظمة الخالق وقدرته في الكون، وعجز العلم الحديث بوسائله وعلمائه عن معرفة الأسرار التي أودعها الله في خلقه ومخلوقاته.

ب- **علم الذرة:** وما قدم للبشرية من خير استطاعت أن ترقى به في هذا الكون بعد التعرف الى قوانينه وتدور في عالمه مما يجعلها تشغل كل الطاقات التي أودعها الله سبحانه وتعالى في هذه الدنيا ظاهرا وباطنا.

¹¹-نقلا عن محاضرة في الملتقى الحادي عشر للقرآن الكريم بدار الإمام للدكتور عيسوي أستاذ بجامعة باتنة حول مفعلات المواطنة.

ج- علم الإعلام الآلي أو الكمبيوتر: هذا الجهاز الذي بات ينظم علاقات الأفراد والأسر والجماعات والمؤسسات والدول ويحفظ الإحصاءات ويجري العمليات ويعطي النتائج ويرصد التوقعات، بات من الضروري بمكان دراسته والمساهمة في معرفته واقتنائه وتطويره ليس على مستوى الحكومات والدوائر إنما أيضا على مستوى الأسر والأفراد، كما بات من الضروري أيضا ربط تطوراتها بالهاتف النقال الذي بدأ يأخذ نفس الدور الحاسم في الحاضر والمستقبل.

2- **النهضة التشريعية:** ونعني بذلك مجموعة الأحكام التشريعية والتي جاء بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والتي تشمل الناس جميعا كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنثاهم، وتشمل العمر كله في جميع مراحل الحياة في الدور الأربع: دار الرحم والدار الدنيا ودار البرزخ ودار يوم القيامة.

وقد غطى التشريع الإسلامي جميع هذه المسافات في الدور الأربع، وبيّن الحقوق والالتزامات وحدد التكاليف في هذه الحياة الدنيا وبين لنا فيها الصراط المستقيم وقال لنا: "وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون" وقال أيضا: (﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾) وبين لنا حسن الخاتمة لمن التزم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض فقال تعالى: "إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا" 30 فصلت، كما بين لنا الجزاء الأوفى يوم القيامة فقال عز وجل: "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدون فيها لا يبغون عنها حولا" 108 الكهف، كما بين لنا الجزاء لمن كفر به وصد عنه فقال تعالى: ".. فالذين كفروا قطع لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق" 22 الحج.

أما ما نعنيه من استنهاض هذا المفعّل حتى نتقوى به في مواجهة التحديات هو أن نعرف جيدا هذا التشريع وشموليته وصلاحيته ومقاصده وأنه رحمه كله وخير كله وعدل كله وندعو إليه ونصبر على ذلك.

ففي مجال العبادات يجب التركيز على روحها ومعانيها وذلك بتنمية الرقابة والخوف والخشوع والرجاء والمحبة في النفس حتى تكون سائقا إلى هذه الطاعات، وأنها ليست مقصودة لشكلها وطريقتها فقط إنما هي هادفة إلى ثمرتها و آثارها على النفس وفي المجتمع، فالصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر والصيام لتقوى القلوب والزكاة لتزكية النفس والمال والحج للتأهب للقاء الله واليوم الآخر، وكل هذه المعاني وردت بحقها آثار تبين الغرض منها وأنها الأسس لبناء المعاملات وتصحيح النيات وإخلاص الوجهات.

وفي مجال المعاملات نجد أنها مبنية على قواعد الشريعة الإسلامية وأحكامها، ولدينا مجالات كثيرة نتعامل فيها مع المؤمنين ومع غيرهم، وأنه لابد من احترام الشروط والعهود والوفاء بها، وقد شملت المعاملات جميع مناحي الحياة الشخصية والمدنية والتجارية وغيرها بل حتى العلاقات الدولية والإنسانية في حالتها السلم والحرب، فضلا عن أحكام العقوبات عند التعدي أو التجاوز أو إلحاق الضرر بالغير، فقد شرعت أحكام القضاء والعقوبات في الجرح والجنيت وحل النزاعات وفقا لأحكام ومبادئ الشريعة الإسلامية كما وجد الفقه الدستوري الذي ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ويفصل بين السلطات وينظم فيها سواء السلطة القضائية أو التشريعية أو التنفيذية.

كما وجد فقه المالية العامة أو الاقتصاد الإسلامي والذي يطرق بابه الغرب الآن بعد حصول الأزمة المالية العالمية عام 2009 الماضي، كما منح الإسلام المجال لأي جديد يخدم الأهداف العامة المتوافقة مع مقاصد هذا الدين، وبين أن الأصل في المعاملات الحل.

وطالما أن النصوص متناهية والأحداث والنوازل متجددة فقد استنبط الفقهاء قواعد قانونية سموها بالقواعد الفقهية كما أنشأوا الضابط الفقهي.. كل هذا بعد استقراء أحكام نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأصبحت هذه القواعد الفقهية أصولا قانونية يستند إليها الفقيه في تقليبه لعل الأحكام ومقاصدها يستهدي بها للوصول إلى الحكم الشرعي الذي لا يخرج عن الحكم التكليفي والذي تدور حوله أفعالنا وأقوالنا ومقاصدنا.

وهذا ما يشجع على فسح المجال للملكات الفقهية في العالم الإسلامي لأن تجتهد في الحوادث والنوازل الجديد وفق مقاصد الشريعة وقواعدها مستجلية من أدوات الفقيه وأصول الاستنباط الأساسية (الكتاب والسنة والإجماع والقياس) توجيه الأحداث و مستلزمة من الأدلة والأخرى (المصالح المرسلة، والعرف والاستحسان) وغيرها ميدانا فسيحا لاحتواء كل جديد وتطوير كل قديم بما يتناسب مع ديننا وثوابته، وبهذا يخرج الفقه الإسلامي من دائرة التقليص والتقليد إلى دائرة الازدهار والتجديد والاستجابة لكل شؤون الناس أفرادا أو جماعات حكومات وهذا نوع من الجهاد الفكري الفقهي يحتاج إلى معرفة واستفاء بما يلامسه العصر من تقدم في مجال الحياة العامة.

ولدينا في العالم العربي كم وعدد هائل من خريجي كليات الحقوق والاقتصاد من محامين وقضاة وقانونيين واقتصاديين بمجرد الدعوة بالرجوع إلى مصادر التشريع الإسلامي سيجدون الأمر سهل وميسر جدا لأنهم درسوا القواعد القانونية في مجال الحياة المدنية وكيفية التعامل معها وتطبيقها يبقى أن يعرفوا أن حكم الله ساري في كل مكان وزمان، ويبقى أن يترجموها وفق ما يريد الله منا كمحامين أو قاضاة أو اقتصاديين ويعرف كل واحد منا أنه مسؤول يوم القيامة بين يدي الله عن تحكيم ما أراده منه وما وهبه له من علم وحكمه، ووفق ما

شرعه له وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزولا قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع، عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن علمه ماذا فعل به"¹².

3- النهضة القيميّة: هذا المفعل هو الأساس في حياة الناس، وقد تركته الأخير لأن جميع ما تقدم يُفرض إليه سواء في الجانب المعرفي أو الاعتقادي أو التشريعي أو غير ذلك، فهناك آداب وأخلاق يجب أن يتحلى بها طالب العلم ومُعلمه ومطبقه في شتى جوانب الحياة، وقد صنف الإمام ابن القيم عشرة أشياء لا فائدة من ورائها، وبدأها بـ: (علم بلا عمل وعمل بلا إخلاص)¹³، ولا يمكن أن نصل إلى ثمرة العلم إلا بالعمل ولا نصل إلى ثمرة المعاملة إلا بالأخلاق، ولا تغرس الأخلاق إلا بالتربية والتوجيه السليم، لذا قال الشاعر **حافظ إبراهيم:**

لا تحسبن العلم لا ينفع وحده * مالم يتوجه ربه بخلاق

وقال أحمد شوقي:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت * فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ومن التحديات التي نواجهها اليوم أن العالم اهتم بالعمل ولم يهتم بالتربية، بينما في التشريع الإسلامي نجد الاهتمام بالتربية بالغ الأهمية، وقد سماها القرآن التزكية، قال تعالى بعد أن أقسم بعشرة مخلوقات عظيمة: (والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها ألهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها)01الشمس، وقال تعالى أيضا: (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا) وهناك إشارات كثيرة إلى هذه المعاني النبيلة نستشفها من قوله تعالى مثلا: (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)58يونس، ويكفي أن نشير إلى حديث واحد من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: (أقربكم مني منزلا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا)¹⁴ (الدين هو الخلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين)، وقد قسم العلماء الربانيون مفهوم الطهارة في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: (الطهور شرط الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وبحان الله ولا إله إلا الله تملآن ما بين السماوات والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبإذن الله نفسه فمُوقها أو معتقها)¹⁵، إلى أربع مستويات:

1- المستوى المادي (النجاسة) 2- طهارة الجوارح 3- طهارة النفس من أمراضها 4- طهارة القلب.

¹²-أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما رقم:2354.

¹³-الفوائد لابن القيم ص196 دار التوزيع والنشر الإسلامية القاهرة 2000م.

¹⁴-أخرجه ابن عساکر عن أبي هريرة رضي الله عنه رقم 2241.

¹⁵-أخرجه الإمام أحمد في مسنده رقم 22303 ومسلم في صحيحه .

وقد وصف الله الكفار بقوله تعالى: (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)46الحج، ويبين أن الحياة الحقيقية هي حياة القلب، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم..)24 الأنفال، وبين السعي المحمود في من استعمل الدنيا وسيلة وليست غاية، قال تعالى: (من أراد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا)18الإسراء

وهذه التشريعات الموجودة في ديننا وغيرها كثير لا تجدها في قوانين الغرب وإن كانوا يحرمون شيئا من المخالفات كعدم الوفاء والغش والكذب لأن ذلك يتعارض مع تحقيق المصالح الدنيوية وليس لأنه قيمة أخلاقية شريفة.

وما أحوجنا اليوم إلى هذه التربية والأخلاق كمسلمين أو دعاة أو معلمين أو قضاة أو سياسيين أو إداريين أو غير ذلك، لأن الشائع اليوم في واقع التعامل الدولي أنه ليس بين الدول مصالح دائمة ولا مبادئ قائمة، وهذه النظرة المصلحية يصدقها الواقع العملي ، رغم أن بناء العلاقات على المصالح الدنيوية فقط جلب الويل للأفراد والشعوب والأمم، فإذا خلت السياسة والاقتصاد والاجتماع والقانون والفلسفة والعلوم والطب والتجارة والزراعة وغيرها من القيم التربوية أصبحت أشباحا مخيفة وخلت العلاقات والمعاملات من المودة والرحمة واللفظ والإحسان والفضل.

ومن هنا بات لزاما على المؤسسات التربوية ترسيخ هذه المبادئ والقيم في حياة الناس والأفراد وإعداد المرابين وإشعارهم بالأمانة وأهميتها في حياتنا وتقل المسؤولية الملقاة على كل فرد ومعلوم في شريعتنا أن خيرية كل واحد منها منبوبة بمدى أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر قال تعالى: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله"110آل عمران.

وكل واحد منا مطلوب منه تغيير المنكر كل حسب موقعه وتخصصه وصلاحيته فمننا من يغير بيده ومنا من يغير بلسانه ومنا من يغير بقلبه لقوله صلى الله عليه وسلم: من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"16 ، وقد أخرج الرسول صلى الله عليه وسلم من دائرة الإيمان من خلا قلبه من الرحمة فقال صلى الله عليه وسلم: "ليس من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرا ويعرف لعالمنا حقه"17 . فكان الذين لا يرحم ولا يوقر ليس بمسلم، وهناك أدب مع الله وأدب مع رسول الله صلى الله عليه

16-رواه مسلم في صحيحه رقم73 وكذلك ابن ماجة وأبو داود وغيرهما.

17-أخرجه أحمد في مسنده برقم6760.

وسلم وأدب مع الناس وإنزال الناس منازلهم أمرا لزم وقال صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة من توفير جلال الله: ذو الشبهة في الإسلام وحامل كتاب الله وحامل العلم مع من كان صغيرا أو كبيرا"¹⁸.

فنسأل أين نحن اليوم من هذه القيم والتوجيهات التربوية، فيجب أن نتقرب إلى الله عز وجل بالتأدب مع العالم والإمام والكبير والصغير بل والرفق بالحيوان، و الأمر في هذا الموضوع يطول، ونقتصر على ما ذكرت، والله هو المرفق والهادي إلى سوء السبيل.

المبحث الثالث: أدوات الاستنهاض

رصدت خمس آليات رأيتها جديرة وصالحة للقيام بمهمته استرجاع القوة إلى النفوس والقلوب و العقول حتى تقوم بدورها المنوط بها في هذه الحياة التكليفية وهي:

1-آلية التوجه المعرفي والتشريع الصحيح: ونعني بها التوجه الصحيح الرامي إلى المعرفة الصادقة بدءا بمعرفة الله وانتهاء بمعرفة الكون وما فيه من قوانين ونظم وقواعد والتشريع في نظمنا القانونية وفق ذلك، وكلما صحت لدينا معرفة الكون ازددنا يقيننا بمعرفة المكون سبحانه وتعالى، كما أن هذه الآلية تدعوا إلى اقتحام العقل وفسح مجال الاجتهاد له في دينا الحياة والمعاملات ليقتم جمال الذرة والبيولوجيا والكمبيوتر، وغيرها من علوم العصر فضلا عن العلوم الإنسانية الأخرى.

كما أن فسح المجال لهذه العلوم وارتفاقها لا يجعلنا ننسى مجال العلوم الإسلامية وتخصصها وما تحمله من قيم ومبادئ لإسعاد الإنسان والبشرية من خلال تشريعاتها في مجال العقيدة والعبادة والمعاملات والنظم والقيم الأخرى وما تدخره للمؤمن من تأمين أخروي يُضحّي ويصبر من أجله في هذه الحياة الدنيا لتحقيق هدف العبادة والعمارة والاستخلاف والنصرة ولنتذكر جيدا أن البشرية لم تسعد إلا في ظل جو معرفي متكامل ومتناسق تعاون فيه أهل العلم مع¹⁹ ولاية الأمر وهما قاعدتا التفعيل الأساسية مع انضمام وتعاون المؤسسات والجمعيات الفاعلة معهم.

2-آلية إصلاح المنظومة التربوية في جميع مراحل الدراسة: وهذا الإصلاح يجب أن يكون مستمرا ودائما ولا يختص فقط بتغيير المناهج وتطويرها بل يتعدى ذلك إلى إعداد وتأهيل المربي والإداري سنويا وفق الأهداف التربوية الكبرى لمؤسسة مؤتمنة على عقول وقلوب مجتمع عربي مسلم.

3-آلية تفعيل دور مؤسسات التشريع ومؤسسات المجتمع المدني: ويتم ذلك من خلال تشريعات وقوانين تعطي صلاحيات متعددة وواضحة تتحرك من خلالها هذه المؤسسات لتنشط في ضوء تحقيق أهداف اجتماعية واضحة، سواء أكانت هذه المؤسسات ذات طابع خدمي أو ثقافي أو رياضي أو مدني أو غير ذلك، ويجب أن يكون لها

¹⁸-أخرجه البيهقي برقم536.
¹⁹-الإسلام بين العلماء والحكام لعبد العزيز البديص14 منشورات عالم الشباب بيروت2000م

رصيد دعم واضح من النظام ومن الشعب حتى لا تعتمد في تسييرها على الصدقات والمتبرعين أو على جهات أجنبية لها أهداف ومطامع داخلية...

و إن المجال التطوعي في هذه المؤسسات يجب أن يكون له دور ومكانته فيها لنخرس مبدأ حُسن المواطنة في جميعنا الجزائري المسلم.

4-آلية إصلاح وتطوير المنظومة الإعلامية: وهذا ينطبق عليه ما ينطبق على المنظومة التربوية، نظرا للخطورة الهامة التي يحتلها الإعلام، فإن تأثيره قوى واضح، ويجب أن تفسح له الحرية ويقل عليه الضغط الحكومي ويفسح المجال للطاقات العلمية المتخصصة ولمراكز الأبحاث حتى يكون لها الدور والمساهمة والمشاركة في بناء مجتمع متخصص وآمن وألا يقوم بالدور الإعلامي فئة واحدة أو فصيل خاص بل ينبغي تعميمه على كل الطاقات لنشر الخير في المجتمع.

5-آلية تفعيل رسالة المسجد ومدارس القرآن والزوايا: وذكرت المسجد لأهميته اليومية في حياة الناس من خلال إسماع كلام الله العزيز الحميد ومن خلال الدور والتأثير التعليمي الذي يقوم به، ونظرا لقلّة الفاعلية في مساجدنا وقلّة تأثيرها وقلّة مصداقيتها نؤكد على أهمية تطعيمها بالأساتذة والمربين المخلصين ليساعدوا الإمام في التوجيه والتنقيف وإعداد البرامج وإحياء المناسبات وكذلك يجب أن يكون للزوايا دور فعال من خلال برامج تربوية تُنتقي لتهدب السلوك وترشد المرشد إلى مراده من غير ضعة ولا طمع ولا نفور، وأن تعطي للزوايا برامج تخدم القرآن وعلومه والسنة وعلومها حتى يتأسس الطالب ويكون له تأهيل يجعله يؤدي دوره بعد التخرج داخل المجتمع ، ولوزارة الشؤون الدينية والأوقاف دور ملموس نحو هذا الاتجاه مع الإشارة إلى أهمية المحافظة على دور المشيخة في الزوايا لأهميتها في التوجيه والتربية والسلوك.

هذه هي المعاني التي أحببت بيانها حتى لا نضل نجتز الماضي ونبقى عرضه للاختراق والتسييس والعولمة وتظل حصوننا غير مؤمنة الأبواب مفتوحة الفوائد تدخلها رياح الشمال تارة لتخرج منها ملوثة تؤثر على جبهتها الداخلية ، وهذا الخطر يجب تداركه، مع إيماني بالقاعدة التي تقول : (ما لا يدرك كله لا يترك كله).

خاتمة وتوصيات

يجب أن يعلم الإنسان أن التغيير فرض عين وأنه حق له وأنه لا بد له من السعي والإرادة ولا يتم ذلك في مجتمعاتنا العربية والإسلامية اليوم إلا بوجود معاهد دراسات متخصصة تقوم بأبحاث في مجالات مختلفة يشير بها على السياسي والحاكم والمسؤول حتى يهتدي بها في قراراته ومفاوضاتها وإلا بقينا نترنح في هذه الفجوة ما بين صاحب القرار من جهة والمتقف من جهة أخرى..

وعليه فإنه ينبغي الإيمان بوجود تحديات معاصرة تواجه الهوية الثقافية وبالتالي تؤثر على السيادة وللعالج والوقاية من هذه التحديات نوصي بالآتي:

- 1-سلبيات العولمة واقع يجب التحذير منه أثناء التعامل مع ايجابياتها.
- 2-إضفاء الروح الحضارية للدين الإسلامي من خلال تعليمه وتدريبه والاحتكام إليه.
- 3-رسم سياسات واضحة وليست شكلية تؤسس لإصلاح شامل في شتى شؤون الحياة (العلمية والتشريعية والعملية والتربوية...).
- 4-تطوير أداء المؤسسات المدنية في مجتمعاتنا العربية والإسلامية للقيام بدورها الصحيح في الحياة (إعلاميا، فكريا وثقافيا، دينيا وروحيا).
- 5-ترسيخ ثقافة شاملة تؤسس لفكرة المواطنة الحقة بدون انغلاق وتدعوا إلى الانفتاح ولكن من غير ذوبان، وتستوعب أبناء مجتمعنا في المهجر وخارج الوطن، ولا يكون ذلك إلا بمرجعية ذات تأثير وثقة.
- 6-رصد ميزانية لتطوير البحث العلمي وفسح المجال في مجتمعاتنا للتخصصات الإسلامية حتى لا يواجهها التطرف من جديد.
- 7-ضرورة حفظ و صيانة ثوابت أمتنا ومبادئها وتراثها مع التعامل بالمستجدات المعاصرة والانفتاح بطريقة هادئة.

و الحمد لله رب العالمين صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

قائمة المصادر

- 1- فكرة العولمة لحسين بن الحسن ص 04 دار الكتاب العربي الجزائر
- 2- وجهة العالم الإسلامي ص 40 لمالك بن نبي دار الفكر سورية ط/5 1986
- 3- وباء العلمانية وهل هو مبرر في العالم الإسلامي د/سفر الحوالي ص 14 دار بن تيمية-الجزائر ط/1 1409هـ وهي رسالة ماجستير من جامعة أم القرى
- 4- هجرة الكفاءات العربية دوافعها واتجاهاتها عبد القادر رزيق المخادمي ص 22 وزارة الاتصال والثقافة دار هومة الجزائر 2000م
- 5- بين حضارة القوة وقوة الحضارة د/بوعلجة غياث ص 65 دار الغرب ط 1 2004م
- 6- الهوية الوطنية والمجتمع العالمي والإسلام ص 101 د/ طراح ومنير سنو دار النهضة بيروت 2002م
- 7- الإرهاب الدولي وفقا لقواعد القانون الدولي لحلمي نبيل أحمد ص 18 دار النهضة القاهرة.
- 8- مقاصد الشريعة الإسلامية ص 64 وما بعدها للدكتور طه جار فياض العلواني دار الفكر.
- 9- نظر الخصائص العامة للإسلام د/القرضاوي ص 36 مؤسسة الرسالة ط/3 بيروت 198
- 10- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي/ الريسوني ص 158 المعهد العالمي للفكر الاسلامي 2007م
- 11- الفوائد لابن القيم ص 196 دار التوزيع والنشر الإسلامية القاهرة 2000م.¹
- 12- أبحاث على النت لمجموعة من الباحثين تدور حول الإسلام والعولمة وآثارهما.
- 13- تخريج موسوعة الحديث الشريف على شبكة إسلام ويب.
- 14- المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، لمحمد إبراهيم الديك، مطابع البيان التجارية، دبي.